المصير الإنسانى

- لحظة فاصلة
- النفخ فى الصور
- الحساب والعاقبة
- حوار وتقريع
- عاقبة صبر المؤمنين
- حسرات
- حكمة الخلق
- خاتمة السورة

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ
أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن
وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ
﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ
تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ المؤمنون الآيات من ٩٩ – ١١٨.

لحظة فاصلة

قال الله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ المؤمنون الآيات ٩٩، ١٠٠.

خبر يسوقه المولى من وراء الغيب عبرة لأولى الألباب، إن الظالم والكافر والفاسق الذى يرتع فى الدنيا ويستخدم نعم الله فى معصية الله ويجاهر بمعصية الله ورسوله، ويعيث فى الأرض فسادا- يظل سادرا غافلا حتى تأتيه لحظة فاصلة لن يتقدمها أو يتأخر عنها، إنه الموت والانصراف من الدنيا والاقبال على الآخرة بحسابها وجزائها..

هنا يتذكر الإنسان ما سعى، لكنه تذكر لا قيمة له ولا جدوى منه فيقول الإنسان ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

إنه يسأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا غير الذى كان يعمل من السيئات والفواحش.. ولم يسأل الرجعة لمآكل يشتهيها أو ملابس يقتنيها أو قصور يعيش فيها..

وتلك أمنية خاسرة لأنها جاءت فى غير موعدها وبلا أسباب تقوم عليها وقد فقدت كل معنى يمكن أن يساهم فى تحقيقها..

لقد منح الله الإنسان أجلا فى الحياة الدنيا ويسر له أسباب الهداية وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى وحذره من عداوة الشيطان ثم تغافل الإنسان عن كل ذلك وأعرض ونأى بجانبه، ولهذا استحق هذا الرد الزاجر وهذه الإجابة الرادعة ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ فهى مجرد كلمة لا مدلول لها، وقائلها كاذب فيما رتب عليها كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأنعام الآية ٢٨.

وقد عبر القرآن عن هذه الكلمة بأكثر من أسلوب، فهى:

﴿ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ الأنعام الآية ٢٧.

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فاطر الآية ٣٧.

﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ الأعراف الآية ٥٣.

﴿ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ الشورى الآية ٤٤.

وسيظل هذا المنحرف عن الدين فى برزخ أى مرحلة متوسطة بين الدنيا والآخرة هى مرحلة عذاب القبر وظلمته، ليس معدودا من أهل الدنيا ولا من أهل الآخرة، فهو فى هذا الوعيد الشديد حتى يخرج الناس من قبورهم يساقون إلى المحشر لفصل الخطاب.

النفخ فى الصور

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ المؤمنون الآية ١٠١.

للعلماء أقوال فى النفخ فى الصور هى:

١ - النفخ ثلاث مرات، الأولى نفخة الفزع، وهى نفخة تورث الرعب الشديد ولكن الناس لا يموتون، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ النمل الآية ٨٧.

والنفخة الثانية نفخة الصعق وهو الموت، قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الزمر الآية ٦٨.

والنفخة الثالثة هى نفخة القيام من القبور والبعث والنشور، قال تعالى ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الزمر الآية ٦٨.

٢ - ومن العلماء من يرى أن النفخ مرتان هما نفخة الفزع أو الصعق فهذه واحدة ونفخة القيام وهذه هى الثانية، ففسر الفزع بالصعق.

وأيا ما كان فإن المراد بالنفخ فى الصور فى سورة المؤمنون هى النفخة الأخيرة يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والصور آلة إذا نفخ فيها ظهر الصوت ضخما عظيما فهى تكبر الصوت وقيل: الصور جمع صورة والمراد النفخ فى الأرواح لتحل فى الأبدان للقيام للحساب والجزاء، أما النفخة الأولى فهى لتخرج الأرواح من الأبدان فيبيت الناس صرعى..

وعندما تقف الخلائق أمام الله الملك الحق المبين لا ينفعهم غير إيمانهم ولا يغنى عنهم مال ولا ولد، ولا ينتصرون بقوة أو عدة، وتسقط اعتبارات البشرية من الأنساب التى تشفع أو تجامل أو تحابى فالكل يفر من الكل، والجميع يود الفداء بالجميع قال تعالى ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ المعارج الآيات ١١ - ١٤.

وقد وقف رسول الله ﷺ فى اليوم الأول للدعوة وقال- كما فى صحيح البخارى- يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ، لا أغنى عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا.

وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ نفى لتساؤل التراحم والتعاطف كما قال تعالى ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ المعارج الآية ١٠، وإثبات للهول والشدة والفزع كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ

ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ عبس الآيات ٣٤ – ٣٧، وحيث إن يوم القيامة طويل وعسير وشاق ففيه مواقف يتعارفون فى بعضها، ويتساءلون فى بعضها ويتحيرون فى بعضها.

obeikandl.com

الحساب والعاقبة

قال الله تعالى ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ المؤمنون الآيات من ١٠٢ - ١٠٤.

إذا قام الناس من قبورهم وسيقوا إلى المحشر، وتجمع الأولون والآخرون قضى الله بينهم بالحق والعدل فيصير الناس فريقين فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير..

وثقل الميزان وخفته له عدة معان:

إنه كناية عن العدل المطلق الذى يلقاه الإنسان يوم الحساب أو أن ثقل الميزان يعنى عظم الأعمال الصالحة عند الله وثوابها الجزيل، وخفة الميزان تعنى قبح الأعمال السيئة والعقاب المترتب عليها..

وقيل: إن الميزان حقيقة شرعية ووردت تساؤلات بشأنه: هل هو ميزان واحد لكل الأعمال ولجميع البشر؟ أو لكل فرد موازين؟ وهل الموزون هو العامل أو نفس العمل أو جزاء العمل أو صحف الأعمال؟.

وفـى صحيح البخارى عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسـان ثقيلتان فى الميزان: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وفـى صحيح البخـارى أيضا قال رسـول الله ﷺ: «إنه ليأتى الرجل العظيم السـمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: اقرأوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ الكهف الآية ١٠٥.

فمن رجحت حسـناته فهو المفلح الفائز ومن خفت حسـناته وزادت سيئاته فهو المفلس الخاسر..

وركـزت الآيات هنا على جانب الخاسـرين بيانا لعقابهم وتذكيرا بقبائحهم وإعلانا لسوء موقفهم من دعوة الحق ودعاته، فذكرت ألوانا مـن العقـاب، فهم فى جهنم خالـدون لا تلحقهم رحمـه الله، وتلفح وجوههـم النار فلا كرامة لهم، وهم فيها كالحون، والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتباعدا عن الأسنان، فهو تشويه للفم واللسان تلك الآلة التى كذبـوا بها على الله وسـخروا بها مـن عباد الله، وأنكـروا بها البعث والحسـاب والجزاء.. فهـم الآن يواجهون العاقبة السـوء مواجهة لا خـلاص منها ولا انقطاع لها، فالخلـود فى الجحيم هو العقاب العادل لكل كافر خاسر..

●●●

حوار وتقريع

قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ المؤمنون الآيات من ١٠٥ – ١٠٨.

تقدم الآيات هنا أسباب العذاب الذى يلاحق الخاسرين الخالدين فى جهنم، وتسوق هذه الأسباب على جهة التقريع والتوبيخ والتأنيب، فهم يدركون حقيقة موقفهم..

لقد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم، وقامت عليهم الحجة وظهرت لهم البينات والمعجزات فرفضوا دعوة الحق وأبَوْا الانقياد للوحى الإلهى وعاثوا فى الأرض فسادا..

وأمام هذه الحقيقة لم يجد هؤلاء الخاسرون إلا الاعتراف المهين واتهام النفس الذليل ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

والشقاوة والشقوة سوء العاقبة، والضلال هو الهلاك والضياع..

لقد اختاروا لأنفسهم هذه النهاية المهلكة بفساد اعتقادهم وانحراف سلوكهم وقبح أعمالهم ومواقفهم العدائية تجاه دعاة الحق وأنصاره..

وفى هذا اليوم العصيب الذى لا تقبل فيه شفاعة، ولا يؤخذ فداء، ولا تتبدل الأحكام يتناسى هؤلاء الضالون تلك الحقيقة فينطقون بكلمة لا جدوى منها ولا فائدة لها قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

إنهم يريدون العودة إلى الدنيا للقيام بالتكليف الشرعى واتباع الأنبياء والاستقامة على الهدى، وتلك أمانى كاذبة فات أوانها، ومضى وقتها..

ولهذا يجابون بما يتناسب مع غفلتهم وسوء تفكيرهم ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

والخسأ هو البعد والذل والطرد والإبعاد، وهى من الكلمات التى تقال للكلب وغيره.. وهذا ما يتناسب مع هؤلاء الضالين، إنهم فقدوا إنسانيتهم وضيعوا كرامتهم، وتنزلت بهم المهانة إلى تلك الدركة من الحيوانية..

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ النحل الآية ٣٣.

عاقبة صبر المؤمنين

قال الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المؤمنون الآيات من ١٠٩ - ١١١.

لا يزال التقريع مستمرا مع الخاسرين الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا واستحقوا النكال فى الآخرة..

لقد كان من أسباب عذاب هؤلاء الخاسرين- استهزاؤهم بالمؤمنين والضحك من عبادتهم لله رب العالمين..

إن قضية المؤمنين فى كل زمان ومكان هى إصرارهم على عقيدة التوحيد، واعتزازهم بالولاء لله ورسوله، وطاعتهم لمنهج الوحى الصحيح طاعة لا تعرف ريبة ولا يعتريها تردد ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾، لكن الخاسرين على مدى العصور يأبَوْنَ إلا تدنيس الفطرة، والتمرد على الحق، والخروج على الاستقامة، وتمتد أيديهم وألسنتهم بالسوء على الطاهرين المؤمنين الصادقين..

وقد انشغل الخاسرون بهذا الإيذاء البدنى والنفسى للمؤمنين غرورا بقوتهم فى لحظة من لحظات الزمن، وتناسوا حقيقة الحقائق وكبرى اليقينيات وهى ذكر الله الواحد الأحد ذى الجلال والإكرام..

وما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين ولا ليخذل الصادقين الصابرين، الذين تحملوا البأساء والشدة فى سبيل عقيدتهم، فقد وعد الله- ووعده الحق- أن ينصرهم فى الدنيا وأن يمنحهم الفوز الأوفى بالفردوس فى الآخرة قال الله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ غافر الآية ٥١.

وهذا الفوز للمؤمنين الصابرين يعلنه الله تعالى على الملأ من الأولين والآخرين يوم يقوم الناس لرب العالمين لتزداد الحسرة على الكافرين ويتضاعف الخزى والسوء على المستكبرين..

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر الآية ٦٠.

حسرات

قال الله تعالى ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ المؤمنون الآيات من ١١٢ - ١١٤.

يظل الخاسرون فى حوار وسؤال تبكيت لهم وتقريع، لتتضح الحقيقة كاملة ويزدادوا هما وغما وكربا، ولتحيط بهم الحسرة من كل جانب..

فيقال لهم: كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟

السؤال عن مدة إقامتهم فى الدنيا أو مدة مكثهم فى القبور..

فإذا كان الأول مرادا فالمعنى أن هؤلاء الخاسرين قد منحوا فرصة العمر وجاءهم النذير فى إطار العقل الذى كرم الله به بنى الإنسان كما قال الله تعالى ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ ﴾ فاطر الآية ٣٧.

فيكون السؤال دافعا لهم إلى الاعتراف بضلالهم وانحرافهم وبعدهم عن الحق، وسفههم وضعف عقولهم لأنهم لم ينتفعوا بنعمة الحياة الدنيا..

وإذا كان الثانى مرادا فالمعنى أن هؤلاء الخاسرين قد عاجلهم عذاب القبر عقب موتهم وظلوا فيه أحقابا حتى قامت الساعة، ويكون السؤال بيانا لهم أن سابق عذابهم لا يساوى شيئا بما ينتظرهم من عذاب الخلود فى الجحيم..

وقد تناسى الخاسرون المدة سواء كانت عمرهم فى الدنيا أو عذابهم فى القبر، وغاب عقلهم عن استيعاب الموقف وأحالوا الجواب إلى من يستطيع الإحصاء ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾..

ويأتى الجواب الإلهى ﴿ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ليؤكد لهم الحقيقة المرة، وهو أن مكثهم فى الدنيا أو عذابهم فى القبر ليس إلا قليلا لما ينتظرهم من حياة السرمد وعذاب الأبد..

ولو عقلوا هذه الحقيقة ما قالوا كلمة الكفر ولا فعلوا فعال الجاهلية ولا وقفوا موقف العداء والاستهزاء من أهل الحق..

❁ ❁ ❁

حكمة الخلق

قال الله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ المؤمنون الآيات ١١٥، ١١٦.

نقترب من ختام سورة المؤمنون كى تقرر الحقيقة الغائبة، وهى أن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يترك سدى، وأن له موعدا لن يخلف مع الله رب العالمين..

فالإنسان تشغله ماديات الحياة، وتغريه مطالب الشهوة، ويخدعه الشيطان حتى ينسى حكمة خلقه وغاية وجوده.. فليس من المعقول أن يوجد الإنسان بما يحمله من عظائم الخلق وغرائب التدبير، وبما منح من مزايا، وما خص به من تكريم، ثم يكون ذلك الخالق عابثا لاهيا، لا يرتب الأسباب والمسببات ولا يدرى الحكم والغايات..

أو يكون ذلك الخلق للعبث واللهو فيمارس الإنسان حياته بلا مسئولية ويقضى عمره بلا تبعات..

كلا الأمرين: عبث الخالق أو عبث المخلوق مستحيل، فكل ما حوى الوجود ينطق بالحكمة، قال الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ص الآية ٢٧.

وقال جل شأنه ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ القيامة الآية ٣٦.

فلابد- إذن- من رجعة إلى الخالق، رجعة فوق التصور، ولا تخضع لموازين البشر، فهى ليست رجوعا من مكان إلى مكان، يحتاج إلى مواصلات وقطع الفيافى والقفار، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا..

فالبعث حق، والذى أبدع الخلق الأول لا يعجزه أن يعيده ثانيا، بل الإعادة أهون فى نظر العقل والمنطق، قال تعالى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس الآية ٧٩.

وقال جل شأنه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم الآية ٢٧.

إن الباعث هو الله الملك الحق الواحد الأحد رب الكون بأجمعه ومدبر أمر الكائنات كلها، فالملك هو المالك الحقيقى لا يبيد ملكه ولا يزول، والحق هو المستحق للجلال والكمال والجمال، وهو الثابت أزلا وأبدا، لا إله إلا هو فهو المعبود بحق لا معبود سواه..

❁ ❁ ❁

خاتمة السورة

قال الله تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ المؤمنون الآيات ١١٧، ١١٨.

تأتى هذه الخاتمة لسورة المؤمنون تأكيدا لعقيدة التوحيد القائمة على العقل والنظر والمدعمة بالحجة والبرهان فإن الإيمان لابد أن ينشأ عن علم، قال تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد الآية ١٩.

فالنواميس الكونية الثابتة والنظام البديع المحكم، واستقامة الخلق كل فى مسيرته- دليل وحدة الخالق.. قال تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء الآية ٢٢.

والذين يدعون إلها آخر ويتخذون لله أندادا- يتمردون على منطق العقل الصحيح وستكون عاقبة أمرهم خسرا، وحسابهم على الله، أى إن عقابهم بلغ من الشدة والقسوة والقوة ما لا يقدر عليه إلا الله، فهو وحده الذى يوفى الكافرين جزاءهم الذى يستحقونه هوانا وذلة وصغارا وشقوة أبدية..

وهنا مجموعة ملاحظات:

- قوله ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ بصيغة المضارع يفيد استمرار الشرك وامتداد الانحراف العقلى مع بقاء الإنسان، فلن تخلص

الدنيا للحق أو للباطل وستظل سنة المدافعة قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

● قوله ﴿ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ بيان للواقع فليس هناك إله آخر ببرهان، فدعوى الشرك قائمة على التقليد الأعمى والانسياق المجرد والاستهزاء بالعقل..

● قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ جاء فى ختام السورة الكريمة ليناسب افتتاحها الذى أثبت الفلاح للمؤمنين فى قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾، فهما نقيضان فى الاعتقاد والجزاء، فالإيمان نقيض الكفر، والفلاح نقيض الخسران.

● جاء الأمر بالدعاء بالمغفرة والرحمة عقب اثبات بطلان دعوى الشرك، وتحقق الجزاء المهين للمشركين، كما جاء الأمر نفسه فى سورة محمد عقب الأمر بالعلم بتوحيد الله عز وجل فى قوله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ محمد الآية ١٩، فكلا الموقفين يحتاج إلى لطف من الله وعون منه سبحانه، فالإقلاع عن الشرك يحتاج إلى التماس مغفرة الله ورحمته، وعقيدة التوحيد تحتاج إلى تطهير مستمر والتجاء إلى مغفرة الله وعفوه..